

أضواء على تاريخ الترتيل اللوثرى

تجربة في الخروج عن الموسيقى الكنسية وإشراك الشعب في الترتيل
بقلم جوزيف يزبك

• مارتن لوثر (1483-1547):



أطلق مارتن لوثر الاصلاح البروتستنتي بوجه كنيسة روما في السنة 1517. وقد كان لوثر راهباً أوغسطينياً مما سمح له بتذوق حلاوة الحياة المكرسة للصلاة، وولد لديه حباً عميقاً للموسيقى.

لم تكن معرفة لوثر بالموسيقى تقتصر على الترتيل الغريغوري التقليدي فحسب، بل كانت تشمل أيضاً اصول الغناء كما كان لوثر عازف فلوت ولوت Flute & lute. كان لوثر يجيد أيضاً التلحين بحسب أصول المساوقة في تلك الحقبة.

من أقوال لوثر المأثورة في الموسيقى:

"تستأهل الموسيقى ان تكرم افضل تكريم، تماماً بعد

كلمة الله. فهي التي تسيطر وتحكم المشاعر الانسانية

[...] التي تتحكم بالانسان [...]. اذا أردتم ان تريحوا المكتئب، تقلصوا التفاهة، تقفوا اليائسين، تحففوا التكبر، تهدئوا الألم أو تسكنوا الذين يسكنهم الغضب [...]. أي وسيلة أفضل لبلوغ ذلك من الموسيقى؟"

Cité par F. Blume, Protestant church Music. Londres, 1975. p10.

أراد لوثر بشكل أساسي ان يعبد المسيحيون الله بصدق ووعي، ولكن ذلك لا يعني أنه أراد التخلي عن القديس اللاتيني. بل على العكس، فقد اقترح حلاً مزدوجاً لمشكلة مشاركة الجماعة في ال-Formulae Missae في السنة 1523 والقديس الالمانى في السنة 1526.

بحسب لوثر، يجب الا يستعمل القديس اللاتيني الا في الكاتدرائيات والاديرة حيث يناسب الطابع الاحتفالي" وحيث يفهم اكثرية المشاركين اللغة اللاتينية.

الموسيقى التي اعتمدت في القديس الألماني كانت الغريغورية، الا ان لوثر أضاف بعضاً من المساوقة أحياناً لتزيين بعض أقسام القديس كما تفعل معظم العناصر الاحتفالية مثل الثياب،...

كان لوثر يصرّ على مشاركة الشعب كله في الترتيل مع الجوقة.

<http://classicalmus.hispeed.com/articles/luther.html>

وبقي الترتيل في الكنيسة اللوثرية من دون مرافقة آلات لغاية القرن الخامس عشر حيث أدخل الارغن الى كنائس عديدة.

اعتبر المصلحون ان امكانية قراءة الشعب للكتاب المقدس بلغتهم الخاصة، هو أمر أساس. الا انه لم يكن بإمكان جميع الرعايا ان تقتني كتباً، فأصرّ لوثر على حفظ التراتيل التي كانت تدور حول مواضيع الكتاب المقدس عن ظهر قلب عندما يكون ذلك ممكناً.

كردة فعل على قرون من التقليد، لم يكن لوثر يصرّ على الالتزام بالقواعد الليتورجية: "ليس ضرورياً [...] ان يتبع الجميع بشكل موحد، قواعد الاحتفال التي وضعها الناس"

Cité par C. Halter et C. Shalk p 64.

بكل أسف، وبحسب دراسة لـ J.S. Bach، أدى عدم وجود قواعد قاطعة الى فقدان الحركة اللوثرية لاتجاهها الصحيح.

بالاضافة الى دور الموسيقى في مساعدة التقوى واعطاء أهمية للخدم الليتورجية، اعتقد لوثر بدور الموسيقى في تلقين الاجيال الفتية القيم المسيحية. اذ يمكن، بحسب لوثر، ابعاد الشباب عن موسيقى ذات تلميحات سيئة عن طريق تعويدهم على موسيقى من النوع النافع.

• الإنحطاط:

- إدخال الموسيقى العالمية إلى الكنيسة:

أدخل لوثر الألحان غير الكنسية إلى الكنيسة من أجل إيصال رسالة الكتاب المقدس إلى الجماعة، فأضحى لوثر بهذا أب النشيد الكنسي الحديث.

<http://www.classical-composers.org/cgi-bin/ccd.cgi?comp=luther>

رکز لوثر على الألحان البسيطة المعروفة لدى الناس البسطاء: ألحان تقوية باللاتيني أو بالالمانى، ألحان مدارس، ألحان أولاد، ألحان تقليدية،... لم يكن لوثر يدعى بأنه موسيقي كبير إلا أنه كان يتمتع بمقدرات مهمة في هذا المجال، وكان يتمتع بحس عملي فيلجأ إلى الملحنين المحترفين عند الحاجة.
<http://classicalmus.hispeed.com/articles/luther.html>

تطور دور هذه الألحان في الكنيسة اللوثرية فيما بعد وأطلق العنان لمواهب مؤلفين كبار مثل باخ الذي أدخل الموسيقى الأوركسترالية الاستعراضية والعاطفية إلى الكنيسة اللوثرية مع بداية القرن الثامن عشر. عندما عرضت الآلام [بحسب باخ] في مدينة كبيرة لأول مرة، بمرافقة فرقة موسيقية كبيرة، تفاجأ الناس ولم يدروا ماذا يفكرون. كان القسم الأول من الآلام تقليدياً فراح الناس يتابعون الترتيل في كتبهم بنقوى. "ولكن، عندما بدأت الموسيقى الاستعراضية، انصدم كل هؤلاء الأشخاص، تبادلوا النظرات وقالوا: إلى أين يؤدي كل هذا؟ قالت امرأة كبيرة من الطبقة النبيلة: "ليحمننا الله يا أولادي! وكأننا في حفلة أوبرا." في الواقع، كان الجميع غاضبون جداً وعبروا عن حق عن استيائهم."
Christian Gerber. 1732, et cite par H. David et A. Mendel, pp. 229-230

- إشراك الشعب في الترتيل:

راحت الموسيقى الأوركسترالية تضعف مع اقتراب القرن التاسع عشر بسبب انخفاض دعمها المادي وبسبب حلول "المرحلة التقوية" *époque du piétisme* التي أعلنت تياراً متطرفاً معاكساً بشكل "فكر مستنير" يعيد التساؤل في جميع مبادئ المسيحية الأساسية. فعاد التشديد على تعميم المعرفة والاعتراض على متطلبات مدارس الترتيل. ذهب هذا التيار إلى إلغاء الجوقات التقليدية المؤهلة وجعل الترتيل من مسؤولية الشعب كلياً. قد يبدو ذلك تدبيراً ايجابياً إلا ان النتائج جاءت وخيمة. اذ قلت الألحان وصار الترتيل في غاية البطء حتى "تحول كل ترتيل التسبيح والشكر الى ترتيل تكفير وموت"

J.E. Hauser – 1834, et cite par F. Blume, Protestant Church, Music – Londres, 1975, p.341

أدى ذلك الى انخفاض عدد الذين يقبلون على الخدم الكنيسة خاصة بوجود، من ناحية ثانية، الموسيقى الراقية والمحترفة التي كانت تجذب الجمهور الى الحفلات الدينية. كانت النتيجة أخيراً ان ضعفت الكنيسة اللوثرية بشكل كبير.

Wilson – Dickson, Andrew. “Histoire de la Musique Chrétienne”, edition française BREPOLs, 1994, pp. 130-131

في الواقع، يذكر المؤرخ Charles Burney انه زار Domkirche de Brême اللوثرية في السنة 1772 ويصف الخدمة فيها بالكلمات التالية:

"(...) وجدت فيها الشعب يرتل لحناً حزيناً ومن دون مرافقة أرغن. (...) بعد سماعي هذا اللحن وعزف الارغن بين المقاطع، يعادان 10 أو 12 مرة، ذهبت الى المدينة. وفي طريق عودتي بعد ساعتين مررت بقرب الكاتدرائية، فوجدت الناس يغنون بصوت واحد، وبكل ما أوتوا من قوة، اللحن نفسه مع المرافقة نفسها"

J.E. Hauser – 1834, et cite par F. Blume, Protestant Church, Music – Londres, 1975, p.341

في السنة 1843 بدأت عودة الجوقات رويداً رويداً في حركة اصلاح لما آل اليه الغاؤها.